

المقاربة الإجرائية في العناوين

رواية الأمير — مسالك ابواب الحديد — أنموذجا

أ. كريمة نوة يوب - جامعة مستغانم

صحيح أنّ الرواية الجزائرية حديثة العهد بالظهور ، والمكتوبة منها باللغة العربية أكثرها حداثة إلا أننا نستطيع القول أنها منذ ظهورها الأول قد اقتحمت الساحة الأدبية بشكل قوي ، فإذا ما استثنينا المحاولات الأولى البسيطة والمتمثلة في (غادة أم القرى) ، (الطالب المنكوب) ، (الحريق)

فإنّ "ريح الجنوب" تبقى تلك الرواية الناضجة التي أعلنت البداية الحقيقية القوية للرواية الجزائرية باللغة العربية. لكن، وبالرغم من أنّ عدد الروايات المنشورة منذ ظهور "ريح الجنوب" حتى الآن يعتبر نسبيا عددا لا بأس به إلا أنه لم يرق في نظرنا إلى الكمّ المنشود إذا ما قورن بحجم بلد كبلدنا ، وإذا ما وضع في إطار العصر الذي نعيش فيه.

ومما لاشكّ فيه أنّ الوضع الثقافي المتخلف والمهمّش في بلادنا منذ الاستقلال حتى الآن دورا أساسيا في جعل الكتاب المنشور بصفة عامة . و النصّ الروائي خاصّة يعيش هذا الوضع الذي نعرفه ، وبطبيعة الحال فإذا كان النصّ الروائي يعاني من قلة الانتشار في بلادنا فإنّ النصّ التراسي والتقدي لن يكون - بدون شك- أقلّ منه معاناة مع العلم أنّ الدراسات الخاصة بالإبداع تكون عادة- بالنسبة الى جميع أنواع الأدب ، و في جميع الأماكن والبلدان- أقلّ من النصوص الإبداعية نفسها ، مع استثناء حالات نادرة يحدث فيها العكس وذلك عندما ينشر نصّ إبداعي يثير حوله مناقشات كثيرة و غنية بسبب غنى مستواه الفني ، أو بسبب ما يطرحه من أشكال مختلفة ، أو ما إلى ذلك.

و بالرغم من كل شيء فإنّ الاتجاه إلى دراسة الأدب الجزائري الحديث أصبح في السنوات الأخيرة أمرا مألوفا لدى كثير من المهتمين والدارسين ، وخاصة منهم الجامعيين مما أدى إلى بعض الغنى النسبي في هذا الجانب بحيث وجد من بين هؤلاء الدارسين من درس تيارا محمدا أو جانبا ، أو موضوعا خاصا في الرواية الجزائرية ، وقد خصّ بعض الدارسين بدراستهم أدبيا معيّنا ، أو حتى نصّا روائيا محددا.

ولكن الأمر الذي يؤسف له حقّا- وهذا راجع إلى الوضع الصعب الذي يعيشه موضوع طبع الكتاب و نشره عندنا- أنّ معظم هذه الدراسات لم تر التور بالرغم من الجهد الكبير الذي بذله أصحابها في إنجازها ، و السنوات التي قضوها في الجمع والتصنيف والدراسة.

وهكذا فإنّ كثيرا من الجهود العلمية عندنا ، و التي تصرف عليها الأموال الطائلة أحيانا ، ويستغرق إنجازها الأمرين معا تظلّ حبيسة الأدراج الى أن تنسى و تموت ، فيا للخسارة.

وبعد، فإذا كانت هذه الدراسات الجامعية و غير الجامعة لا تستحق النشر كلها ، فمما لا شك فيه أن فيها ما يستحق ذلك.

و بالرغم من كل شيء ، و مع ما ذكرنا من وصف للوضع الصعب الذي تعيشه الثقافة في بلادنا ، و يعيشه الكتاب- تبعا لذلك- طبعا و نشرًا ، فإن هنالك مقالات و دراسات تتعلق بالإبداع الأدبي عندنا و منه الرواية ، تفلت هذه المقالات و الدراسات بين حين و آخر لكي ترى النور بفضل تصميم أصحابها على نشرها ، و بفضل الوسيلة التي تتاح لهم لفعل ذلك.

وإذا كان من واجبنا هنا أن ننوه بجميع تلك المقالات و الدراسات التي نشرت على صفحات الجرائد و المجلات في داخل الجزائر و خارجها ، فإننا لا ننسى التنويه- خاصة- بتلك الدراسات القيمة التي نشرت في شكل كتب ، و منها على الخصوص (الرواية العربية الجزائرية الحديثة) للدكتور محمد مصايف، واتجاهات الرواية العربية في الجزائر للدكتور واسيني الأعرج).

ومن العوامل النقدية التي أثارت فضولي هي: كيف أصبحت الرواية تقرأ التاريخ؟ في حين أننا تعودنا أن التاريخ قد يتناول "شخصية" ما "ويسرد مسارها؟!

فرواية الأمير "مسالك أبواب الحديد" لواسيني الأعرج هي أول نموذج شدني إليه فضولي إذ قمت بدراسة نقدية لمضمونها ابتداء من العنوان مطبقة في ذلك نظرية التناص و المتعاليات النصية (لجيرار جينات).

فكانت كالآتي:

2-3- تناص العنوان الرئيسي مع عتبات الرواية¹:

نجد أنّ الموضوع الذي يعالجه واسيني الأعرج في كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد قد هاجر بمحمولاته السردية والأنطولوجية والثقافية إلى رواية كتاب الأمير، هذه لتصبح لعبة لتذكر المحكي والمعيشي من خلال تنشيط فعل التاريخ وتداعياته التخيلية إذ نلتمس هذا التناص الذاتي بين العاملين في موضوعتين أساسيتين تحركها الموضوعة السردية الكبرى، وهي موضوعة الذاكرة كونها السارد والمسروود في الآن نفسه.

فالكاتب واسيني الأعرج أراد أن يجسد هذه الذاكرة في سرده للرواية معتمدا على ظروف تاريخية حقيقية عاشها الأمير عبد القادر كإنسان وكقائد للمقاومات، فهي للحظة ترتيب في الذاكرة واختزنها اللاوعي قبل أن تعرف طريقها إلى النص الروائي (كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد) فمثلا: فعل الذاكرة في كل الأبواب التي درسناها سابقا ما هو إلا تفعيل لذاكرات كانت متخمة داخل اللاوعي، حرّرها الكاتب لتتفاعل مع النص الروائي (المناس) ابتداء من العنوان الرئيسي إلى الصفحة الرابعة من الكتاب و يلج داخل العتبات التي تكون جزء من هذا التناص المتواصل، إذ نلاحظ أن الإهداءات كذلك جزء هام يقع عليه التناص كباقي العتبات. لهذا السبب ارتأينا أن نعرفها على النحو الإجرائي الذي اعتمده جيرار. جينيت في تعريفه للتناص.

2-3-1- تناص العنوان الرئيسي مع الإهداء، التنصيص، الهوامش والترقيم:

أ- الإهداءات :

تعد الإهداءات من العتبات النصية و موجّهات القراءة ، خفّلت النصوص المنشورة بالإهداءات.

فنص (الأمير مسالك أبواب الحديد) يتصدّره إهداء، صيغته لم تكن على النّحو التقليدي بل ممتثل في قولة "موسينيور دي بوش" القيمة و التي تصل إلى المتلقي بواسطة ذاكرة الكاتب التي نقلت هذه الأخيرة في مقدمة النص الروائي كإهداء لشخصية "الأمير عبد القادر من "موسينيور دي بوش" لتليها قولة الأمير عبد القادر كإهداء من ذاكرة الكاتب إلى ذاكرة القارئ لتتجسّد الشخصيتين الإنسانيّتين في ذاكرة التاريخ.

"في انتظار القيام بما هو أهم، أعتقد أنّه صار اليوم من واجبي الإنساني أن أجتهد باستماتة في² نصرة الحق اتجاه هذا الرجل و تبرئته من تهمة خطيرة ألصقت به زورا و ربما التسريع بإزالة الغموض و انقشاع الدكنة التي غلفت وجه الحقيقة مدة طويلة"

Mon seigneur de Puche « Si tous les trésors du monde étaient déposés à mes pieds et s'il m'était donné de choisir entre eux et ma liberté, je choisirai ma liberté » L'Emir Abdelkader

- براعة الكاتب في صوغ الإهداء باللغة العربية "من السيد دي بوش" و باللغة الفرنسية "من الأمير"، إنّما هو تجسيد لمعالجات نصية في الإهداءات كأنّه يضع بين أيدينا نظام تحاور الشخصيتين رغم اختلاف اللغتين و الديانتين. لو أسقط القارئ(ة) الإهداء، لما أثر ذلك في تلقيه النص على النحو الذي وجّه إليه.

هنا يعزز ذات زاوية القراءة التي وجّه إليها العنوان لقراءة النص [باعتباره نص عن التاريخ، المنفى، المعاناة...]. ليتجلى نظام التّحاور في النصوص ابتداء من الإهداء الذي يوظفه الكاتب كفاتحة نصية لما قد أخفاه العنوان من مضمون أعمق و أرقى مما هو متجلي في العنوان الرئيسي و العنوان الثانوي.

عندما قرأ هذا النص نشعر بأنّ الكاتب "واسيني الأعرج" هو المعني بإظهار ما أخفاه التاريخ في حقّ هذه الشخصية الثّيلة و هي شخصية "الأمير عبد القادر" كما يمكننا أن نشعر أنّنا نحن كذلك كمتلقين بنشوق عظيم نحو هتين الشخصيتين المذكورتين في هذه الصفحة (كإهداء) لأنّها تحمل نوعا من الخصوصية و الحميمة.

وأبرز دليلا على هذا ما جاء به جيرار جنيت تحت عنوان :

- العملية التواصلية والتداولية للإهداء:

وفق جيرار جنيت يعتبر أن العلاقة التواصلية والتداولية التي تربط كل من المهدي بالمهدي إليه، وما هي طبيعة كل واحد منها في تحقيق الرسالة المناسية عامة:

1- المهدي (Dédicateur) من يهدي ومن يقوم بعملية الإهداء؟:

وهذا السؤال يتضمن العملية التواصلية والتداولية للإهداء، لمعرفة عناصره البانية لهذه العلاقة الإهدائية، فسؤال من يكون الإهداء؟ أو من يقوم بعملية الإهداء؟ سيحدد لنا أهم عنصر من هذه العناصر وهو المهدي، كما سيفهمنا معنيين محتملين على الأقل على حد ما ذكره "جينيت":

• المعنى الأول: خارج عن الكتاب/ العمل ينظم في التاريخ، ويمكن أن يكون التحديد الجنسي لهذا العمل، وإذا توسعنا أكثر يسعنا القول بأنه يخضع إلى التصنيفات والتوزيعات الموجودة في بعض الحقب أو بعض الأجناس أو عند بعض الكتاب الممارسين لإهداءاتهم في كتبهم دون غيرهم.

• المعنى الثاني: يمكننا من الاعتقاد بأن هذا السؤال لا فائدة منه كونه تحصيل حاصل فطرحنا لسؤال من يضع الإهداء؟ الإجابة ستكون آليا يوضع من طرف الكاتب، إلا أن هذه الإجابة مضللة لما نعرف بأن بعض الترجمات يكون الإهداء فيها من طرف المترجم نفسه.

كما توجد طرق أخرى محتملة للإهداء ذكرها "جينيت"، كأن تهدي شخصية متخيلة لكتابتها أو العكس، أو أن يهدي شخص واقعي صديق الكاتب مثلا بدلا عنه، وهناك احتمال آخر لم يذكره "جينيت" هو أن يهدي كاتب لشخصيات تخيلية موجودة في أعمال كتاب آخرين وحتى لشخصياته هو.

وانطلاقا من ذا التعريف، اعتمدت تنطبق عناوين المتن الروائي ابتداء من الغلاف إلى المضامين النصية داخل الروائية مطبقة في ذلك رأي "جيرار جينيت" في تعاليم بعضها البعض دون نسيان صفحة الإهداءات.

ب- التنصيص:

يختلف التنصيص عن التضمين، وإن كان يندرج في الإطار العام لتعريف رولان بارث للتضمين، باعتباره "تحديد وعلاقة تكرار وسمّة تمتلك القدرة على الاستناد إلى تنويهاً سابقة أو لاحقة أو خارجية، وإلى مواضيع أخرى من النص أو نص آخر" فالتنصيص يستند إلى تنويه خارج النص، وإلى مواضيع أخرى محددة بعلامة التنصيص من نص آخر، لكنه يختلف عن التناص، فالتناص كتابة أخرى، أو توظيف لنص غائب بدون وضع علامة التنصيص أو الأقواس. فهو حسب تعريف جوليا كريستيفا "النقل لتعبيرات سابقة أو متزامنة. هو "اقتطاع" أو تحويل" وهو "عينة تركيبية تجمع لتنظيم نص معطى التعبير المتضمن فيها أو الذي يحيل إليها". فكل نص يتشكل من تركيبية فسيفسائية من الاستشهادات. فكل نص هو امتصاص أو تحويل لنصوص أخرى، أما التضمين التقليدي، الذي عرف وانتشر في كتابة أهل الأندلس مثلا، فهو يتم بتضمين صدر أو عجز بيت شعري من قصيدة لشاعر آخر، ولكن عندما يتم تنصيص مقولة لشاعر(ة) أو كاتب(ة) أو فيلسوفها، وتدرج أسفل العنوان وقبل النص، ففي هذه الحالة يتم التعامل باعتبارها عتبة من عتبات النص، وموجه من موجّهات قراءته، وتنبيه للقارئ يكشف علاقة هذا التنصيص بالنص.

ج- الهوامش: تقوم الهوامش بدور في إضاءة النص، وإن كانت تأتي في خاتمته وليست كاللعتبات الأخرى، مثل العناوين والإهداءات، التي تسبق النص، التي يثبتها البعض في خاتمة النص الشعري، وفي تمرد للهوامش على دورها كمفسر وشارح، تنزع في نص (كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد) لتصبح جزء من النص المكتوب في تبادل لمواقع المتن والهوامش.

د- الترقيم: يعد الترقيم من الميزات البصرية، التي تترجم إيقاعيا مقترح الصوت والصمت باعتبارها إحدى التقنيات، التي تسهم في خلق وتكوين إيقاع إلى ميزة بصرية تتجسد في علامات الترقيم المتاحة، ويستخدم لضبط إيقاع وموسيقى النص.

وتبدي الكثير من النصوص - مادة الكتاب - اهتماما بالترقيم، وتنقسم المقاطع الشعرية بأرقام متسلسلة، فنص (كتاب الأمير) ينقسم إلى أبواب هي أميراليات وكل أميرالية تحمل رقما معيناً لوقفة معينة بترقيم معين، فهو لا يأتي لتقسيم المقاطع النصية لكنه يبدو كجزء أصيل من دلالات وإشارات وإحالات النص.

كأنما الأميرالية الثانية بوقفها هي تقديم أو عرض للمشاهد، تبدأ بها الأميرالية الثانية ووقفها وفق عناوينها وقد يكون الترقيم هنا عنصراً متنقلاً بين الأصوات وتغيرها وفق تغير الزمن أو المناخ النفسي وهذا ما أبرزه التحليل السابق في دراسة التعالقات النصية بين الأميراليات وتعداد نفسها ... فكان تراوح (بين الطويل والقصير، والقصير جداً).

فهذا التوغل في استخدام الترقيم عند واسيني الأعرج إنما هو إدماج الهوامش والحواشي بنية نصية لتكون جزء أصيلاً من كتابه وعلامة من علامته الدلالية.

2-3-2- تناس العنوان الرئيسي مع صورة الغلاف³:

كما سبق وأن درسنا صورة الغلاف فهي صرخة مسموعة عبر ما وضع كرم لتلك الشخصية البطلة في كتاب الأمير إذا توّّل العنوان الرئيسي الذي كتب عريضاً وباللون الأحمر، هذا اللون إنما جاء ليتناص مع صورة لغلاف كتاب حملة الأمير، كتاب عن الأمير، كتاب كتبه "موسنيور ديوش"، كتاب كتبه السارد، فاللون (هنا) يصرخ بمتعالياته عبر صورة الغلاف وما وراءها من نص روائي.

إذ يمكننا قراءة ألوان صورة الغلاف لهذه الرواية من خلال تحليلنا، فنقرأ تفعيلها على الغلاف بما أنها تطفح بحضورية لونية تتوَّج لتنتظر (الإضاءة) الموجودة في الرواية (حب الخير لشخصيتي الرواية: الأمير و"موسنيور ديوش")، تفعيل عنصر الحب للخير الإنساني، وتعميم اللون (البنّي الترابي) هو ارتحال من الحاضر (الحبي) إلى الماضي (الحبي) في ذاكرة السارد وذاكرة أبطال الرواية، التي تناسها التاريخ وأحيائها الفعل الروائي.

فصورة الغلاف تحمل ألوانا حارة، فاتحة تحمل دلالات قوية كقوة النص الروائي الذي يحملنا السارد أمانة قراءته بمجرد التطلع على هذه الصورة، وهو ما يناظر أحد مقاطع الرواية في ذكر قول "موسنيور ديبوش" في انتظار القيام بما هو أهم، أعتقد أنه صار اليوم من واجبي الإنساني أن أجتهد باستماته في نصره الحق تجاه هذا الرجل..."

فاللون الأسود رمز القوة والوجودية (وجود وحضور السارد الذي يفرض العمل النصي الروائي)، اللون الأحمر جاء في المرتبة الوسط بين العنوان الرئيسي والعنوان الفرعي (حضور المناص بدلالته المشروحة سابقا)، أما اللون الأسود في اللون الفرعي يختلف من حيث دلالاته مع العنوان الأول (اسم السارد) إذ يدل على المصاعب والمهالك التي واجهت شخصيات الرواية في تحريك الحوادث وتجسيد العقدة للولوج إلى نهاية الرواية (التي هي بداية لرواية أخرى)، فعملية التذكر تستشير الذاكرة بعد النسيان، لتخرجها من ظلمة التعتيم إلى نور الإضاءة، بعد المرور بالبرزخ اللوني/ الضوئي الذي هو لون الطبيعة الجبلية المتمثل في لون التراب (لون الجبلين) ← أبواب الحديد، التي سلكها الأمير كقائد المقاومات طيلة حوادث الرواية، بحكم الفترة التاريخية التي عايشها.

فصورة الغلاف بألوانها تعزز قراءة عنوان الرواية، وعنوان الرواية بصورته يؤدي إلى تحفيز القراءة عند القارئ (المتلقي، الجمهور المستهدف) كما سماه "ج. جينيت" لنص الرواية⁴. وفي الختام، لابد من التأكيد على أن مجالات دراسة الأدب الجزائري "الرواية الجزائرية" قديمة وحديثة مجالات واسعة وغنية، وأن أمام النقاد والدارسين كثيرا مما ينتظر منهم عمله.

الإحالات:

1. جيرار جنيت Gérard Genette

Palimpsestes, la littérature au second degré, ed, du seuil ; Paris 1982

2. كتاب رواية الأمير مسالك أبواب الحديد، لمواسيني الأعرج، منشورات الفضاء الحر، الطبعة الأولى، نوفمبر 2004، ص.ب. 367، القبضة الرئيسية 16004، الجزائر العاصمة.

3. جيرار جنيت Gérard Genette

Palimpsestes, la littérature au second degré, ed, du seuil ; Paris 1982

4. جمال بوطيب: العنوان في الرواية المغربية (حادثة النص، حادثة محيطه)، ضمن كتاب الرواية المغربية وأسئلة الحداثة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ط. 1، سنة 1996، الدار البيضاء، المغرب.